

وضعية الآثار الإسلامية بمدينة تلمسان

أ.د. عبد الحميد حاجيات*

تعد مدينة تلمسان من أهم المواقع الأثرية بالجزائر . ورغم أنها وصفت بالمدينة الأزلية^١ ، أي المتوغلة في أعماق التاريخ حتى أنها يجهل تاريخ تأسيسها ولا يعلم من أسسها^٢ ، فإننا لا نجد بها حاليا إلا الآثار الإسلامية ، بينما كانت من قواعد الرومان في الغرب الجزائري ، وأنها كانت تحمل عند الرومان اسم بوماريا ، وعند الأهالي البربر اسم أجادير ، أي السور الذي يحيط بالمدينة ويحميها . أما اسم تلمسان ، فيبدو أنه يطلق علي موقع أجادير وعلي مواقع أخرى مجاورة له ، وأنه أقدم أسماء هذه المدينة^٣ .

والجدير بالملاحظة أن تلمسان لم تحتفظ بآثارها القديمة ، بينما هي تمتلك حاليا أهم رصيد للآثار الإسلامية في الجزائر ، رغم ما تم تخريبه منها من جراء الحروب التي ما فتئت تنشب بينها وبين الدول المجاورة . فلم يبق من المسجد الذي بناه الأدارسة بأجادير^٤ إلا بقايا أسس الجدران التي كشفت عنها بعض الحفريات ، خلال السنوات الأخيرة .

غير أن التطورات السياسية ، التي أدت إلى تأسيس دولة المرابطين ، كان لها أثر هام بالنسبة لمدينة تلمسان ، حيث أن المرابطين جعلوا من هذه المدينة مقر ولاية المغرب الأوسط ، وشيدوا مدينة جديدة محاذية لموقع أجادير ، سموها تاجرارت ، أي المحلّة ، وبنوا بها قصر الولاية والمسجد الأعظم ، الذي يعد أهم نموذج لمساجد المرابطين بالمغرب الأوسط ، ويشكل نموذجا لتأثر الفن المعماري المغربي بالفن الأندلسي .^٥

ثم واجه المرابطين حركة الموحدين ، لكنهم غلبوا علي أمرهم ، واستولي هؤلاء علي مملكتهم بالمغرب والأندلس ، وبقيت تلمسان في عهد الموحدين مقر ولايتهم بالمغرب الأوسط . فتزايد نموها ، واتسع عمرانها ، وعني ولايتها بتحسينها ، وتشيد المباني الضخمة ، ورعاية النشاطات الاقتصادية والثقافية^٦ .

ولما ضعف شأن الموحدين ، ونشأت دولة الزيانيين بالمغرب الأوسط ، جعل هؤلاء من تلمسان عاصمة لهم . فتزايد نموها ، وقصدها العديد من رجال العلم وأرباب

* رئيس قسم التاريخ بجامعة تلمسان (الجزائر).

^١ الأندلسي ، المغرب العربي ، من كتاب " نزهة المشتاق " ، تحقيق محمد حاج صادق ، ص ١٠٠ .

^٢ حول هذا الموضوع ، انظر : عبد الرحمن ابن خلدون ، العبر ، ج ٧ ، ص ١٥٦ .

^٣ حول اسم تلمسان ، انظر : عبد الرحمن ابن خلدون ، م . س ، ج ٧ ، ص ١٥٦-١٥٧ .

^٤ نفسه ، ج ٧ ، ص ١٥٧ .

^٥ حول المسجد الأعظم بتلمسان ، انظر : رشيد بورويبة ، الجزائر في التاريخ ، ج ٣ ، ص ٣٤٩-٣٥٠ .

^٦ انظر : عبد الرحمن بن خلدون ، م . س ، ج ٧ ، ص ١٥٩-١٦٢ .

الصنائع والحرف ن ولجأ إليها كثير من الأندلسيين الذين ساهموا بقسط وافر في النشاطات الثقافية والفنية.^٧

وعندئذ تكاثرت الانجازات المعمارية بها ، و من أبرزها تدعيم حصانة المدينة ببناء أسوار باب كشوطة غربا ، وتشبيد مئذنة المسجد الأعظم بكل من أجادير وتاجرات ، في عهد يغمراسن ابن زيان ، مؤسس الدولة الزيانية^٨ ، ثم مسجد أبي الحسن التنسي ، أيام الأمير أبي سعيد عثمان بن يغمراسن ، ثاني ملوك بني زيان ، الذي لا يزال يشهد علي رقي الفن المعماري الإسلامي بالمغرب العربي ، خلال العهد الزياني^٩ ، ثم مدرسة أولاد الإمام ومسجد المشوار في عهد أبي حمّو موسى الأول (٧٠٧-٧١٨) .^{١٠} ويعتبر عهد السلطان أبي تاشفين الأول (٧١٨-٧٣٧ هـ) ، عهد ازدهار للمباني الزيانية المتمثل في تشبيد أفخم القصور الزيانية وأشهرها ، مثل قصر أبي فـهر ودار الملك ودار السرور^{١١} ، التي تم تخريبها علي يد المرينيين ، أثناء غارة لهم علي تلمسان سنة ٧٨٥ هـ.^{١٢}

وبناء المدرسة التاشفينية ، التي هدمتها السلطات الاستعمارية الفرنسية سنة ١٨٧٦ م.^{١٣} واستمرت الانجازات المعمارية خلال القرن الثامن الهجري ، رغم الصراع الطويل الذي كان قائما بين الزيانيين والمرينيين ، والذي بلغ أوجه في عهد السلطان أبي الحسن المريني ، واستطاع هذا الأخير أن يستولي علي تلمسان والمغرب الأوسط سنة ٧٣٧ هـ^{١٤} . غير أن الإنجازات المعمارية لم تتوقف بتلمسان أيام الحكم المريني ، بل تـمادت أشغال البناء مع توفير الأموال الكثيرة لتشبيد المباني الفخمة . وتمركزت إنجازات أبي الحسن المريني حول موقعين خارج تلمسان ، أحدهما يشمل مدينة المنصورة غربا ، والآخر مجمع العباد شرقا ، بجانب ضريح الولي الصالح أبي مدين شعيب الأشبيلي.

ولمباني هذا الموقع الأخير أهمية كبرى ، حيث أنها تشمل أجمل ما لا يزال قائما بالقطر الجزائري من الآثار الإسلامية . وتتمثل هذه المباني في مسجد الشيخ أبي

^٧ نفسه ، ج٧ ، ص١٦٢-١٦٣ .

^٨ انظر : يحيى ابن خلدون ، بغية الرواد ، ج١ ، تحقيق عبد الحميد حاجيات ، ص٢٠٧ .

^٩ نفسه ، ص٢٠٩ ، ٢٢٤ ؛ pp 170-84 ; G.et W.Marçais, Les monuments arabes de Tlemcen .

R.Bourouiba, L'art religieux musulman en Algerie, pp 109-29.

^{١٠} انظر : أبو عبد الله التنسي ، تاريخ بني زيان ملوك تلمسان ، من "نظم الدر والعقبان" ، تحقيق محمود بو عياد ، ص ١٣٩ ؛

Marçais, op. Cit, p. 186. G. et W

^{١١} انظر : يحيى بن خلدون ، م.س ، ص٢١٦ ؛ أبو عبد الله التنسي ، م.س . ص١٤٠ .

^{١٢} انظر : عبد الرحمن ابن خلدون ، م.س . ج٧ ، ص٢٩٦-٢٩٨ .

^{١٣} انظر : أبو عبد الله التنسي ، م.س . ص١٤١ وهامش ١٧٥ ؛

G. et W .Marçais, op. Cit, p. 302 ; R. Bourouiba, op. Cit, pp. 135-36.

^{١٤} انظر : عبد الرحمن ابن خلدون م.س . ج٧ ، ص٢٢٥-٢٣٠ .

مدين، الذي يعد تحفة من أعلى مستوي للتأنق والإبداع والمهارة الفنية بالمغرب العربي^{١٥}، وفي مدرسة العباد المحاذية للمسجد غربا، وهي المدرسة الوحيدة التي لا تزال قائمة بتلمسان. وهذه المدرسة توجد الآن في حالة تدعو إلى القلق، حيث انها تتطلب عملية ترميم عاجلة وهامة جدا^{١٦}. ويوجد أيضا بجانب المسجد شرقا بقايا قصر بناه السلطان أبو الحسن المريني، وقد تداعت بعض جدرانه، وسقط العديد من زخارفه ن ويتطلب هذا القصر عناية خاصة من أجل الحفاظ علي ما تبقي منه وترميم ما يمكن ترميمه^{١٧}.

أما موقع المنصورة،فانه يشتمل علي بقايا المدينة التي شرع في تشييدها أبو الحسن يعقوب المريني أيام الحصار الطويل (٦٩٨-٧٠٦هـ)، علي مسافة حوالي كيلو مترين من تلمسان غربا، ثم واصل أبو الحسن المريني بناءها. ولما استرجع الزيانيون ملكهم بالمغرب عادوا إلى عاصمتهم، ثم هدم المباني المرينية بالمنصورة، ما عدا بقايا مؤذنة المسجد وبعض جدرانه وبقايا جدران السور. والظاهر أن مسجد المنصورة، الذي بني علي منوال جامع حسان بالرباط، كان يفوق المسجد الأعظم بتلمسان من حيث المسافة، ويمتاز بالخصائص الفنية التي تشاهد في كبار مساجد المغرب الإسلامي المعاصرة^{١٨}.

ثم ظهر الخطر المريني من جديد بعد ذلك بقليل، أيام السلطان أبي عنان الذي بسط سلطته علي تلمسان والمغرب الأوسط سنة ٧٥٣هـ. فلم يحاول إعادة بناء ما هدم بالمنصورة، وأمر بتشديد مسجد وزاوية خارج باب زير بتلمسان شمالا، إزاء ضريح الولي الصالح أبي عبد الله الحلوي الأشبيلي^{١٩}، علي منوال مسجد أبي مدين^{٢٠}. ولم يبق أثر للزاوية، بينما لا يزال المسجد قائما، إلا أنه أصيب ببعض الأضرار، مما جعله في حاجة ماسة إلى الترميم والصيانة ولم يطل ملك أبي عنان المريني الذي توفي في آخر سنة ٧٥٩هـ. وتلا ذلك فترة فوضي واضطرابات بالمغرب الأقصى، الأمر الذي سمح لأبي حمّو موسى الثاني الزياني بإحياء الدولة الزيانية، وطرد المرينيين من تلمسان وسائر أنحاء المغرب الأوسط. واستمر بعد ذلك عداء المرينيين، غير أنه أخذ يضعف شيئا فشيئا، ولم تتجح محاولات المرينيين المتكررة قصد الاستيلاء علي تلمسان، بل باءت بالفشل^{٢١}. ورغم تعرض أبي حمّو الثاني إلى منافسة بعض الأمراء من أقاربه علي العرش، وما نتج عن ذلك من حروب وفتن، فانه استطاع أن

^{١٥} انظر: رشيد بوربية، م. س.، ص ٤٩٩-٥٠٠.

^{١٦} انظر: R. Bourouiba, op. Cit, pp. 190-91.

^{١٧} انظر: رشيد بوربية، م. س.، ص ٥٠٤.

^{١٨} انظر: عبد الحميد حاجيات، أبو حمّو موسى الزياني، ص ٦٢-٦٤؛ رشيد بوربية، م. س.، ص ١٤٩-١٥٠.

^{١٩} انظر: رشيد بوربية، ص ٥٠٣-٥٠٤.

^{٢٠} حول المقارنة بين مسجد أبي عبد الله الحلوي ومسجدي المنصورة والعباد، انظر: R. Bourouiba, op. Cit, pp:

159-85.

^{٢١} انظر: عبد الرحمن ابن خلدون، م. س.، ج ٧، ص ٢٥٦-٣٠٩.

من أقاربه علي العرش ، وما نتج عن ذلك من حروب وفتن ، فانه استطاع أن يعيد لتلمسان بعض رونقها . واليه يرجع الفضل في بناء المدرسة اليعقوبية ، وزاوية ومسجد بجانب ضريح شيدته لتخليد ذكرى أبيه أبي يعقوب وعميه الأميرين أبي سعيد وأبي ثابت ، غير بعيد عن باب ايلان بتلمسان . غير أنه لم يبق من هذه المباني حالياً إلا المسجد ، الذي تم تشييده علي منوال مسجد أبي مدين وأبي عبد الله الحلوي ، لكنه أقل زخرفة واتقاناً .^{٢٢}

والجدير بالملاحظة أن سقف هذا المسجد في الجانب الشرقي قد سقط حديثاً ، فكان لهذا الحادث أثر في توعية المسؤولين المعنيين بصيانة الآثار ، وتجري الآن عملية ترميمه كما يلاحظ أن تشييد هذا المسجد كان في فترة بداية تدهور الدولة الزيانية ، شأنها في ذلك شأن الدولة المرينية بالمغرب الأقصى ، والدولة الحفصية بالمغرب الأدنى ، ولذا فإن ما أنجز تشييده بعد ذلك من المباني الدينية وغيرها ، لا يبلغ مستوى ما سبق ذكره من حيث الجمال والإتقان والإبداع .

وبعد فيستنتج مما سبق ذكره أن وضعية هذه الآثار تدعو حالياً إلى العناية بها، والإقبال علي ترميم ما ساءت حاله منها ، واصبح مهدداً بإتلاف زخارفه أو سقوط سقفه أو جدرانه ، أو غير ذلك من الأضرار التي ينبغي معالجتها علمياً وعاجلاً ، بالتعاون مع اختصاصيين من البلدان الشقيقة والصديقة . ومن جهة أخرى ، فان ضرورة صيانتها وتفقد أحوالها باستمرار ، تتطلب تكوين تقنيين ورسامين ومهندسين متخصصين في الترميم والصيانة، في إطار برامج التكوين بالمؤسسات الجامعية المعنية بالآثار . هذا بالإضافة إلى العمل علي توعية المسؤولين في مختلف القطاعات التي لها علاقة بالآثار، وحثهم علي تجنب الإهمال، و الحرص علي إقامة الحراس والأعوان المكلفين بالسهر علي حفظ التراث الأثري ، ومنع أعمال الإتلاف والسرقة والتخريب ، وتشجيع المتاحف لإيداع التحف الأثرية ، وجعلها في متناول الباحثين لدراساتها ، والجمهور العام للاطلاع عليها والاستفادة من التعرف عليها .

^{٢٢} حول المدرسة اليعقوبية ، انظر : عبد الحميد حاجيات ، م. س. ص ١٨١-١٨٣؛ أبو عبد الله التتسي ، م. س. ١٨٠٠؛
R.Bourouiba, op. Cit, p. 136.